الرؤية ما بعد الاستعماريّة في رواية جسر للبوح وآخر للحنين لزهور ونيسي

استاذ مشارک روح الله نصیری (الکاتب المسؤل)
r.nasiri@fgn.ui.ac.ir
الباحثة. زهراء پورحمدانیان
Z.hamdanian@fgn.ui.ac.ir
قسم اللغة العربیة و آدابها،کلیة اللغات الاجنبیة، جامعة اصفهان،ایران

The post colonial vision in the novel of a bridge to revelation and another for nostalgia

Associate Professor Ruhollah Nasiri (responsible writer)
Zahra Pour hamdanian
artment of Arabic Language, Literature, Faculty of Electronic Languages, University of Isfahan, Iran

المستخلص

تعدّ الرّواية من الأنواع الأدبيّة التي سايرت الإنسان في طرح مشاكله وأزماته وهواجسه الداخليّة والخارجيّة المتأثّرة بالتغييرات التي أفرضت على الإنسان في العهد الحديث. الرّواية الجزائريّة كذلك لم تكن بمستثناة عن الرويات الأخرى بل خدمت الرواية الجزائريّة الأدباء الجزائريين وكذلك الشعب الجزائري في مواجهة الآخر المستعمر. النظريّة ما بعد الاستعماريّة من النظريّات الأخرى التي حفلت بها الرواية الجزائريّة. بسبب أن زهور ونيسي من أهمّ الرّوائيّات الجزائريّات واللاتي ساعدن على توجيه الرواية الجزائريّة نحو الموضوعات المهمّة يعالج هذا المقال الرّؤية ما بعد الاستعماريّة في رواية جسر للبوح وآخر للحنين لزهور ونيسي وفقاً للمنهج الوصفي التحليلي. من النتائج التي توصّل إليها هذا المقال هي أنّ قضيّة الاغتراب على أشكاله المتنوّعة و قضيّة الآخر وتناوله من جانب الشخصيّات الجزائريّة وتحليل خطّطه وأفكاره وفكرة التحرير وذكرى الوطن من الموضوعات الفرعيّة الأخرى التي عبّرت عن فكرة الروائيّة ورؤيتها لما بعد الاستعماريّة وأنّ ظاهرة الاغتراب على أشكالها الثلاثة أي الاغتراب المكاني والزّماني والذّاتي من الموضوعات الأكثر نجاحاً وأهميّة والتي أجادت الرّوائيّة في أخذها أساليب للكتابة ما بعد الاستعماريّة.

المفردات الرئيسيّة؛ الرؤية ما بعد الاستعماريّة، الرواية الجزائريّة، زهور ونيسي، رواية جسر للبوح وآخر للحنين.

Abstract

The novel is one of the literary genres that accompanied man in presenting his internal and external problems, crises, and concerns affected by the changes imposed on man in the modern era. The Algerian novel was also not excluded from other novels, but rather served the Algerian writers as well as the Algerian people in the face of the colonial other. Post colonial theory is one of the other theories that the Algerian novel full of , and Because Zuhur wanasi is considered the most important Algerian female novelists who helped directing the Algerian novel towards important topics this article deals with the post colonial vision in the novel of A Bridge for Revelation and another for Nostalgia for Zuhur wanasi according to the descriptive analytical approach. One of the findings of this article is that the issue of alienation in its various forms and the issue of the other is dealt with by Algerian personalities and the analysis of the steps and the ideas with The idea of liberation and the memory of the homeland are among the other sub topics that expresses the idea of the novelist and her post colonial vision, and that the phenomenon of alienation in its three forms, i.e. spatial, temporal, and self alienation is one of the most successful and important topics that the novelist mastered in taking post colonial writing methods.

key vocabulary ; The post colonial vision, the Algerian novel, Zuhur wanasi a novel of bridge to revelation and another to nostalgia.

المقدمة

واجه الأدب في مسيرته آراء وأفكار ونظريات حسب الظروف التاريخية والاجتماعية التي خيّمت على المجتمع وتأثّر الأدب بتلك الأفكار حيث كان الأدب بمثابة السلاح الذي يحمي به الأديب نفسه ومجتمعه.نظريّة ما بعد الإستعمار من النظريات الأدبيّة الحديثة والتي وجّهت الأنظار نحو الأدب والسّياسة.

حاولت نظريّة ما بعد الإستعمار أن تفيد العالم بإلقاء الضّوء على ثقافة الشّعوب الأصليّة وهيمنة الشّعوب الغربيّة عليها وقد يعلم دارس الآداب بأن الغرب في العهد الحديث وضع الشّعوب الغربيّة في مركزيّة الثّقافة والعلم والشّرق والشّعوب المتبقّية في الهامش، ولاسيما أن وجهة النّظر هذه قد ظهرت بعد سيطرة البنيوية على الحقل الثقافي الغربي، وبعد أن هيمنت الميثولوجيا البيضاء على الفكر العالمي، وأصبح الغرب مصدر العلم والمعرفة والإبداع. في الحقيقة تعمل نظرية «مابعد الاستعمار» على فضح الإيديولوجيات الغربية، وتقويض مقولاتها المركزية على غرار منهجية التقويض «التقويض هو المصطلح الذي أطلقه الفيلسوف الفرنسي المعاصر جاك ريدا على القراءة النقديّة المزدوجة، التي اتّبعها في مهاجمته الفكر الغربي الماورائي، منذ بداية هذا الفكر حتّى يومنا هذا. إذا التّقويض هو ما تهدف إليه نظرية مابعد الحداثة، التي تودّ تقويض الفكر الغربي وتحطيم أغانيمه المركزيّة. بمعنى أنّ ما بعد الحداثة، قد تسلّحت بمعاول الهدم، والتفكيك، والتشريح لتعرية الخطابات الرّسميّة وفضح الإيديولوجيّات السّائدة المتآكلة وذلك باستخدام لغة الإختلاف والتّضاد

والتناقض.» (بوختاش، ۲۰۱۷، ص) التي تسلح بها الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا، لتعرية الثقافة المركزية الغربية، ونسف أسسها الميتافيزيقية والبنيوية.

أمّا بالنسبة إلى الرواية الجزائريّة فظلت ثورة التحرير الجزائرية حاضرة بقوة في الرواية الجزائرية كنشيد يحتفي ببطولاتها وأمجادها وتاريخها، واستمر تأثير الثورة في الكتابة الأدبيّة لمدة مديدة لكن ضَعُفَ الحديث عن ويلات الحرب والثّورة الجزائريّة بعد الإستقلال الجزائري وراح الأدب يفتّش عن خلفيّات الإستعمار الذي عمل على امتصاص هويّة الجزائري بواسطة التثقيف والهيمنة على التّراث الشّعبي وفرض قوّة المستعمر وسلطته على الشّعب الجزائري وراحت الرواية الجزائريّة تسبر غور هذه المشكلة وتعالج موضوعات حديثة فرضتها الظروف والتغيرات الزمنية.

زهور ونيسي من الروائيات الناجحات اللاتي بذلت جهداً في هذا المجال «وكانت الرواية الجزائرية ميالة وبشكل واضح للمجتمع والتطورات التي حصلت عليه وكذا الثورة وأهم أحداثها وشخوصها وكانت لاتكاد تنفك تتحدّث عن تداعيات هذه الآخيرة على عدّة مستويات ويمكننا أن نذكر زهور ونيسي وهي الكاتبة المناضلة التي سيطر حسّها النضالي على كلّ كتاباتها تقريباً.» (حياة، ۲۰۱۵، ۷۴) فزهور ونيسي في رواياتها جسر للبوح وآخر للحنين تُشير إلى قضايا هامّة بالنسبة إلى القضية الجزائريّة. يحاول هذا المقال أن يمعن النظر في موضوع الرؤية ما بعد الاستعمارية في رواية جسر للبوح وآخر للحنين لزهور ونيسي وفق المنهج الوصفي- التحليلي.

أسئلة البحث

يحاول هذا البحث أن يردّ على السّؤالين التّاليين؛

١. ما الموضوعات والأساليب التي تحكي عن الكتابة برؤية ما بعد استعماريّة لزهور ونيسي؟

٢. أي الموضوعات تبدو أكثر نجاحاً في التعبير عن الرؤية ما بعد الاستعماريّة في رواية جسر للبوح وآخر للحنين؟

خلفية البحث

تعدّ رواية جسر للبوح وآخر للحنين من آهم الروايات النسوية الجزائرية التي تعرّضت للدراسة والتحليل من قبل كثير من الباحثين والنقّاد ولاشك أنّ هذا الأمر نفسه يحكي عن أهمية هذه الرواية ودورها البارز فى الأدب الجزائري المعاصر. من البحوث التي تناولت رواية جسر للبوح وآخر للحنين يمكن الإشارة إلى؛

تبحث سليمة صلاح في مقالها الذي يحمل عنوان «بنية المنظور الروائي في رواية "جسر للبوح وآخر للحنين" لزهور ونيسي» عن تموضع الصوتين المختلفين أي الراوي العليم وبطل الرواية. قامت الباحثة في مقالها بتسليط الضوء على المنظور الروائي، أي الراوي العليم والراوي المشارك ومن ثم تتوصل إلى عدة نتائج منها أنه يبنى المنظور الكلي للرواية من خلال تكامل وتلاحم عدّة أشكال سردية أو عدّة منظورات تختلف باختلاف موقع الراوي بين داخل وخارج العمل الحكائي وبين طبيعة ما يحكيه إذا كان شخصية تخييلية. طُبع هذا المقال عام ٢٠٢٠ في مجلة جسور المعرفة، المجلد السادس والعدد الرابع، صفحة ١٤٢_١٣٠.

تبحث الطالبة وهيبة قادم في رسالتها التى قدمتها لنيل درجة الماجستير والتي تحمل عنوان «جماليات الزمان والمكان في رواية جسر للبوح وآخر للحنين

لزهورونیسي عن وظیفة الزمن داخل الخطاب الروائي والتقنیات الزمنیة المستخدمة في الروایة وکذلك تبحث الباحثة عن مدى تأدیة المکان الروائي لوظیفته. من النتائج التی توصلت إلیها هذه الرسالة هي أنه یلاحظ على هذه الروایة اعتمادها على خاصیة الاسترجاع الذي یعتمد على ذاکرة الرواي، وقد ظهرت الاسترجاعات بنسبة کبیرة، أمّا بالنسبة إلى الاستباق فهو قلیل في الروایة وفیما یخص بعلاقات الدیمومة ترى الباحثة بأن علاقات الدیمومة أو إیقاع السرد فیُشاهد بأنها تتراوح بین القلة والکثرة إذ توجد الوقفة الوصفیة قلیلة مقارنة بکثافة المشاهد. نوقشت هذه الرّسالة عام ۲۰۱۳ وفي جامعة العربي بن مهیدي في الجزائر.

سمیحة خلیفي من الباحثات الأخر واللاتي بحثن عن روایة جسر للبوح وآخر للحنین. تطالع سمیحة خلیفي في مقالها «الخطاب الأنثروبوثقافي للمدینة "روایة جسر للبوح وآخر للحنین لزهور ونیسي"». یطرح هذا المقال أسئلة وهي عبارة عن: کیف قدم الروائي العربي مدینته؟ وهل جسّد حقّاً خصوصیّتها التي تمیّزها عن سائر المدن؟ وهل ینتقد فیها المدینة الخراب أم یسعى لتحریرها؟. من النتائج التي توصلت إلیها الباحثة هي أن الروایة سعت في تأصیل الهویة الحضاریة والثقافیة لمدینة قسنطینة إنطلاقاً من المعطى الأنثروبوثقافي "المألوف" الذي یمثّل رمزاً تلخیصیّاً یشکل هویة المجتمع الفلسطیني، ویعکس خصوصیّته وطبیعته، إذ یمیل إلى الهدوء والخفة والرزانة في معاملاته وحرکاته منفتحاً على ثقافة غیره ومتقبل لها. طُبع هذا المقال عام ۲۰۲۰ في مجلّة العلوم الإنسانیة لجامعة أم البواقي، المجلّد ۷، العدد الأوّل من صفحة ۵۵۵_۵۴۲.

ملخص الرواية

تحكي رواية جسر للبوح وآخر للحنين عن حياة كمال عطار الذي قضى أربعين سنة في الغربة وعاد بعد تلك الأعوام ليقضي ما تبقّى من عمره في مدينته قسنطينة، مدينة الجسور التي قضى كمال عطّار معظم أيّام طفولته عليها، يتذكر كمال عطّار في الرواية أحداث حياته وتفاصيل الأحداث والصّراعات التي أدّت إلى عزلته الصعبة وواقعه المرير.

فكمال عطّار وحيد لوالديه المحافظين للدين والعادات والتّقاليد، كمال عطّار هو الإبن الوحيد للعائلة المتمسّكة بقيم الثورة وأهدافها والمحافظة على الدّيانة والأعراف والتقاليد. كانت علاقة وثيقة تربط بين كمال عطّار وأمه فهي كانت كلّ شيء في حياته يأخذ منها النصيحة والمشورة وتحثّه نحو الأفضل كما أنه حظي بأخ لم تلده له أمّه وهو مراد. عشق كمال عطّار فتاة يهوديّة جعلته يهيم يوماً بعد يوم لكنه خشي أن يخبر أباه بهذا العشق خشية من موته لشدّة وقع هذا الخبر وعظم البليّة عند الأب، تزوّج كمال العطّار من أخت صديقه مراد تلبية لطلب عائلته لكنّه فجع ببليّة أخرى وهي أن نفيسة «زوجة كمال عطّار» ماتت حيث تعسرّت عليها الولادة ومات الطفل أيضاً. تاه كمال عطّار فكريّاً حين واجه تلك الصدمات وعلق بمدينته هياماً وعشقاً ليسدّ تلك الآلام التي نغصت عليه العيش.

الرّؤية ما بعد الاستعماريّة

قبل أن نتم أي تعريف عن الرؤية والحديث عنها لابدّ من التوقّف عند مصطلح ما بعد الاستعمار ومفهوم هذا المصطلح. النظريّة ما بعد الاستعماريّة أو ما بعد الكولونياليّة هي النظريّة التي تكون واسطة عقد الدراسات ما بعد الاستعماريّة

في العهد الحدیث. تعرّضت نظریة ما بعد الاستعمار لتعریفات وآراء مختلفة کما أنّه ظهرت هناك بعض الموضوعات الفرعیّة التي قد تُعدّ في إطار النظریّة ما بعد الاستعماریة. النظریة ما بعد الکولونیالیّة أو النظریّة ما بعد الاستعماریّة من النظریّات التي تربّعت على اهتمام علماء ونقّاد بارزین في الأدب الحدیث والذي قد یکون إدوارد سعید أهمّ هؤلاء النقّاد والباحثین حیث یعتقد إدوارد سعید بأنّ «لزوم اقتفاء الأثر السیاسي للکتابة، عبر قراءة ثقافیّة تُعید النقد إلى العالم، فالنّص هو حادثة ثقافیّة لابدّ من ربطها بمظاهر الحیاة السیاسیّة والثقافیّة» (سعید، ۲۰۰۰، ۷).

یزعم کثیر من المؤرّخین والنقّاد بأن إدوارد سعید هو من وضع اللبنات الأولى للنظریّة ما بعد الاستعماریّة والتي لمّح إلیها في کتابه الاستشراق، «إذ یزعم سعید بأن التواریخ الکولونیالیّة التي تخبّرنا الکثیر عن علاقات الهیمنة بین الشّرق والغرب أنتجت خطابات الآخر الکولونیالي، وکانت بدورها أیضاً نتاجاً لعدد من هذه الخطابات فالشّرق مشکل على أنّه شيء یجب معرفته من خلال المجازات والاستعارات اللغویّة التي أعادت إنتاج علاقات الهیمنة، بل صارت الهیمنة شرطاً طبیعیّاً للعالم المستعمر ولیست نتیجة للقوى الجیوسیاسیّة بحدّ ذاتها» (لومبا، ۲۰۱۳، ۷) ومن التعریفات الأخرى التي قد تکون وافیة بالغرض فیما یتعلّق بالنظریّة ما بعد الاستعماریّة یمکن الإشارة إلى هذا التعریف: «نظریّة ما بعد الکولونیالیّة هي في الحقیقة قراءة للفکر الغربي في تعامله مع الشّرق، من خلال مقاربة نقدیّة بأبعادها الثقافیّة والسیاسیّة والتاریخیّة وبتعبیر آخر تحلّل هذه النظریّة الخطاب الاستعماري في جمیع مکوّناته الذهنیّة والمنهجیّة والمقصدیّة بغیة استکشاف الأنساق الثقافیّة

المؤسّساتيّة المضمرة في هذا الخطاب المركزي» (جديلي، ٢٠١٦، ٢٣٨) يعني أنّ نقطة اللقاء بين الشّرقي والغربي بإمكانها أن تشكل النّواة الأساسيّة للدراسات ما بعد الاستعماريّة وهذا لا يعني أنه يجب أن يكون حضور مستقيم للآخر في الأعمال الأدبيّة بل يمكن القول بأنّ كلّ الأحداث الروائيّة التي تكون في صلة مع الآخر ومع خطّاته لترسيخ قواعده في ثقافة الأمم الشرقيّة يمكن أن تُطالع في هذا السّياق.

أمّا بالنسبة إلى تعريف الدراسات ما بعد الاستعماريّة والتي تكون أكثر توسّعاً من النظريّة ما بعد الاستعماريّة فيعتقد أشكروفت بيل بأنّ مصطلح «ما بعد استعماري» «يستخدم ليشمل كل الثقافات التي تأثرت بالعملية الإمبريالية من لحظة الاستعمار حتى يومنا الحالي؛ ذلك أن هناك خطًّا متصلاً من الاهتمامات، على مدار العملية التاريخية التي بدأها العدوان الإمبريالي.. ونشير كذلك إلى ملاءمة المصطلح للنقد الجديد العابر للثقافات والذي ظهر في السنوات الأخيرة، وللخطاب الذي تكوّن من خلاله ذلك النقد. وبهذا المعنى، فإن كتابنا هذا – كما يقول بعض القائلين بنظرية «مابعد الاستعمار» – يهتم بالعالم كما كان خلال فترة الهيمنة الإمبريالية الأوروبية وبعدها، وتأثير ذلك في الآداب المعاصرة... وعلى هذا النحو، تكون آداب البلاد الأفريقية، وأستراليا وبنجلاديش وكندا وبلاد البحر الكاريبي والهند ...كلها آداب «ما بعد الاستعمار»... وما يجمع بين هذه الآداب – بعد سماتها الإقليمية الخاصة – أنها ظهرت بشكلها الحالي في أعقاب تجربة الاستعمار، وأكدت نفسها من خلال إبراز التوتر مع القوة الإمبريالية، وبالتركيز على ما يميزها عن فرضيات المركز الإمبريالي. وهذا ما يجعلها آدابًا ما بعد استعمارية» (Bill, 1989, 2).

وفقاً للشاهد السّابق تحاول دراسات ما بعد الاستعمار إلى دراسة وتحلیل كلّ الأفكار والرّؤى التي تبنّتها الثقافة الغربیة تجاه الشعوب التي تعدها خارج منظومتها أي بالأحرى في الهامش وفي محیط الدائرة التي شكلت الثقافة الغربیّة نواتها ومركزیّتها و« ولقد طرحت نظرية «مابعد الاستعمار» مجموعة من الإشكالات الجوهرية التي تتعلق بعلاقة الأنا بالآخر، أو علاقة الشرق بالغرب، أو علاقة الهامش بالمركز، أو علاقة المستعمِر بالشعوب المستعمَرة الضعيفة من جهة أخرى. وفتحت نظریّة ما بعد الإستعمار وحتّى الدراسات ما بعد الإستعماریّة باباً موسّعاً على مضامین لم یكن یتناولها النقّاد والباحثون في المئة سنة الماضیة أو لم یتناولها الباحثون لم ینتبهوا إلیها بشكل تخصّصي ومن هذه المضامین نشیر إلى «ثنائیّة الشّرق والغرب» و«الدّفاع عن الهویّة الوطنیّة والقومیّة» و«المقاومة المادیّة والثّقافیّة» و«غربة المنفى» و«التعدّدیة الثّقافیّة» (حمداوي، ٢٠١٨، ١٦٩) فیختلف الاستعمار وفق الرّؤیة التي لمّح إلیها النص السّابق أي فهناك استعمار ظاهري والذي یتمثّل في شنّ الغارات والعدوان على الشّعوب وهناك استعمار جدید یحاول امتصاص هویّة الشعوب واستلاب ثقافتها وتطویعه لما یكون في صالح البلدان الغربیّة.

الإغتراب

یعدّ الاغتراب من ملامح الكتابة الما بعد الاستعماریّة و«على الرغم من الحریة التي حصلت علیها الشعوب إلّا أن مشكلة جدیدة ظهرت على الساحة ألا وهي أزمة الهویة/ الذات أمام الآخر ومن ثم ظهرت أزمات الاغتراب النفسي والمكاني، والإحساس بالدونیّة أمام الآخر.» (فراحتیة وبوزیدي، ٢٠٢١، ٧٥٣) ولعلّ هذا الأسلوب من الكتابة هو أهم ّمیزة ظهرت في كتابة زهور ونیسي. لیست

الشخصيّة الرئيسة فقط، بل العديد من الشخصيّات الثانويّة الأخرى في هذه الرّواية تشعر بالاغتراب. قُسّم هذا الاغتراب في الرّواية إلى أقسام متعددة، وهي عبارة عن الاغتراب المكاني، والزّماني والذّاتي ممّا يكثر من أهمية هذا الاغتراب هو أنه في مواضع كثيرة من الرواية يكون بمثابة فتح باب للحديث عن الاستعمار أو النتائج التي ورثها للشعوب.

الإغتراب المكاني

للمكان في الرّواية المعاصرة مفهومٌ خاص بحيث يمكن أن يتوصّل القارئ إلى معلومات جديدة بشكل غير مباشر عن الشخصيات والعناصر الأخرى بواسطة المكان ويمكن القول بأن المكان الروائي هو«الكيان الإجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان و مجتمعه. و لذا فشأنه شأن أي نتاج إجتماعي آخر يحمل جزءا من أخلاقيّة و أفكار و وعي ساكنيه. و منذ القدم و حتّى الوقت الحاضر كان المكان هو القرطاس المرئي و القريب الذي سجّل الإنسان عليه ثقافته و فكره و فنونه، مخاوفه و آلامه، و أسراره و كلّ ما يتّصل به و ما وصل إليه من ماضيه ليورثه إلى المستقبل» (نصير، ١٤٣٠، ١٦) من أهمّ ميزات المكان الروائي في رواية جسر للبوح وآخر للحنين هو أنّ القارئ قبل أن يفتح الرّواية ويقرأ شيئاً عنها يواجه أهميّة للمكان في العنوان ويتصوّر بأنّ هناك جسور متعددة قد تكون مترابطة مع نفس الشخصية الرّوائيّة حيث تدل مفردتا «البوح» و«الحنين» على أفعال نفسية تكون في علاقة مباشرة مع الاغتراب. حينما يعود كمال عطّار إلى مسقط رأسه، يبحث عن الظّواهر التي تآنس معها في الطّفولة لكنّه لم يجد معالم واضحة من معظمها فهو يشعر باغتراب تجاه الأمكنة. هذه الأماكن متعدّدة و تجلّى هذا الاغتراب المكاني أيضاً

بصور متعددة. یبدأ الحدیث في الروایة عن المدینة، وتحتلّ المدینة في الفصول الأولی دوراً مهمّا فهی بمثابة فتح باب لحدیث الاغتراب والتلهّف والتشوّق؛

«مدینته الحبیبة جمیلة خطیرة کمومس، حنون طیّبة کأم، ربّما غادرها وهو لا یهاب شیئاً، ورجع إلیها وقد عرف کلّ أنواع الخوف، أصبح قادراً علی شمّ الخوف من بعید، أربعین سنة عاشها ملأی بالمفاجئات والأحداث، والحلو، والمر، کان وهو صغیرٌ یسمع کلّ متذمّر غاصب یهدّد بالانتحار من علی الجسور، طریق الخلاص للأرواح المتعبة، خصوصاً الفتیات والنّساء الخطایا، فأیّ بیت في هذه المدینة یرضی بعد ذلك بإیواء الخطایا حتّی لو کنّ فلذات أکباد.» (ونیسي، ۲۰۰۶، ۱۱).

یحاول کمال عطّار أن یتطرّق إلی موضوعات متعددة تتعلّق بمدینتة في الطّفولة وأن یقارن بین الأحداث في الحقبتین کي یزید القارئ بعدّة معلومات عن مدینته ویوضّح له النّقاط المشترکة والمتفاوتة في الحقبتین من الزّمن والمختصّة بالمدینة و«المکان یساهم في خلق المعنی داخل الرّوایة و لا یکون دائماً تابعاً أو سلبیّاً بل إنّه أحیاناً یمکن للرّوائي أن یحوّل عنصر المکان إلی أداة للتّعبیر عن موقف الأبطال من العالم، و هذا ما فعله مارسیل بروست حین عمد إلی تدمیر المکان الواحد و جعل الأمکنة دائماً متداخلة بحیث ینسخ أحدها الآخر في اللحظة الواحدة.» (لحمداني، ۱۹۹۱، ۷۰). «الخوف» من الطّوابع النفسیّة التي مازالت تحکم ضمیر کمال العطار بعد السّنوات التي فارقها من موطنه، وهذا الخوف متجذّر في أیّام طفولته في مدینته قسنطینه فهو یذکر بأن الجسور کانت مکاناً للانتحار، فالنّساء الخطایا وکذلك الأرواح المتعبة کانت تهدّد بالانتحار من

على تلك الجسور وهذا الأمر بإمكانه أن يدلّ على الواقع الاجتماعي المتردّي الذي عاشه كمال عطار وكافّة أبناء جلدته في تلك السّنين.

لم يتحدّد كمال عطّار بذكر الهواجس والمخاوف والتلهّفات وكذلك الطّوابع النفسيّة تجاه مدينته بل يتعدّى تلك إلى ذكر بعض المعلومات التاريخيّة وذكر الأسماء والشخصيّات التاريخيّة التي أثّرت في تاريخ تلك المدينة؛

«هاهي كما عوّدتك بقلبها الكبير كهدير وادِيها وأحجارها، المدفونة حبات لؤلؤ نادرة، تموّجات الوادي تخفيها لتبرزها تارات، غضباً تارة وحنيناً وشوقاً أكثر من تارات. «ماسينسا» فارسها المغوار، عشقها أمّا فاتنة في الزّمان، وربط حنّاء عرسه بأطراف ضواحيها المبعثرة، وزرع قلبه عربون عشق دائم ووثيقة وحدة وانتصار» (ونيسي، ٢٠٠٦، ١٣).

لم ينس كمال عطار الحديث عن جماليّات المدينة فهو يذكر هدير الوادي وحبّات اللؤلؤ وكذلك تموّجات الوادي ومن ثمّ يتطّرق إلى «ماسينيا» فارس هذه المدينة المغوار الذي كان شغوفاً بهذه المدينة و«في مرحلة ثانية يهتز المستَعمر ويقرّر أن يتذكر نفسه.. إنه الآن ينتشل من أعماق ذاكرته مشاهد قديمة من طفولته، ويعود إلى أساطير عتيقة فيحاول إعادة تأويلها على ضوء استطيقا مستعارة.» (فانون، ٢٠١٥، ١٧٩) ومن الملاحظات الهامّة التي يجب أن يُشار إليها في هذا التحليل هي أنّ هذا التطرّق إلى المدينة ربّما يبدو عاديّاً لكنّه في الحقيقة لم يكن بمعزل عن صفة الاغتراب تجاه المكان الرّوائي لأنّ مقام البحث ليس مقام تقديم المعلومات عن المدينة، بل المقام مقام تلهّف وتشوّق وتوجّع ولذلك فكمال العطّار ينظر إلى القضايا التاريخيّة من

منظور طابعه الاغترابي، فهو في تطرّقه إلى مدىنته ىغرق في الأفكار ولم ىدع شاردة ونافرة إلّا وىتحدّث عنها.

الإغتراب الزّمني

الاغتراب الزمني هو أنّ المغترب ىصعب علىه قبول الواقع وقبول الزّمن الذي هو فىه بتغىّراته وملامحه وىمكن القول بأنّ هذا النوع من الاغتراب ىظهر عندما ىعىش الإنسان في ماضىه بدلاً من قبول الواقع أو عكس ذلك و«ىتجلّى في عدم تقبّله وتحقىره وعدم الانتماء إلىه، فهو حاضر الهزائم والانكسارات العربىّة المتلاحقة والعقم والتخلف المزري» (بركات، ۲۰۰۷، ۱۷۱) من ملامح الاغتراب الزمني لرواىة زهور ونىسي؛

«أىّها الزّمن لماذا تغتصب براءتنا؟ لماذا تتركنا أبرىاء، كما ولدنا؟ لماذا تقحم أحداثك ونواىاك الشّرىرة في حىاتنا، فتترع عنّا ثوب البراءة وتستبدله بثوب الغشّ والخداع على النّفس أوّلاً، ثمّ على الآخرىن من حولنا.» «ونىسي، ۲۰۰۶، ۱۷).

تخاطب الشخصىّة الرّوائىّة الزّمن والسبب هو أنّها ارتأت بأن مرور الزّمن هو الذّي أدّى إلى تغىىر أشىاء كثىرة، فمرور الزّمن أدّى إلى فقد براءة الطّفولة للشخصىّة الرّوائىّة وكذلك إلباسها ثوب الغشّ والخداع، «فالزّمن ىنساب تلقائىّاً إلى عمق وعىنا فىحدّد مداركنا و مواقفنا و لغتنا... و ىحمل معه ضمائرنا و تجاربنا من اللحظة الحالىّة إلى اللحظة التالىة.» (دىفىز، ۱۹۹۶، ۱۱)هذا الخطاب والإنتباه إلى الزّمن ظهر إثر الاغتراب الزّمني للشخصىّة حىث تستذكر الشخصىّة الرّوائىّة الزّمن الماضي وجمالىّاته، وتشتاق وتتلهّف إلى الزّمن الماضي الذي لم ىعهد مدىنته على ما هي علىه الىوم ومن التقنىات التي زادت

من الطابع الاغترابي حول الزّمن هي أن الشخصيّة بدت تتحدّث مع الزّمن كأنّ لا أحد يدركها فلجأت للزّمن وجعلته مخاطباً لكلامها.

من الشّواهد الأخرى التي تحكي عن الإغتراب الزّمني في الرّواية؛

«أعلم ذلك لكن دعني أسافر عبر سنابل الزّمن، ثمّ ستجدينني قد عدت إليك، إنّني لن أهرب منك أبداً بعد اليوم، وأنت حلمي الأوّل والأخير، دعي جسمي يرحل عبر المسافات والأمكنة روحي ستعود إليك، أمّا قلبي فقد تركته من البداية عندك، بنبضاته وهوياّته الولهى، توسّدي عليه،إنّه أكثر دفئاً من نار مدفئة خشبيّة في سراياا التاريخ.» (ونيسي، ٢٠٠٦، ٢١).

خاطبت الشخصيّة الرّوائية في الشاّهد المسبوق الزّمن الرّوائي، لكنّها في هذا الشّاهد تخاطب المدينة وكذلك تحكي للمدينة عن الزّمن، تعتقد الشخصيّة الرّوائية أنّ الزّمن هو الباب الذي يسهل منه الدخول إلى المدينة ولذلك تطلب من المدينة أن تسمح له السّفر عبر سنابل الزّمن، كأنّ الشخصيّة لشدّة التشوّق والتلهّف إلى ماضيها تتشبّث بكلّ شيء للوصول إلى مدينته وجمالها السّابق، فهي وإن تعرّضت للتغيير الذي نتج عن الزّمن ومروره لكنّ قلبها بقي عند المدينة منذ البداية بنبضاته وهوياّته. وتعتقد الباحثة بأنّ الاغتراب هي الصفة التي ميّزت هذه الرواية عن باقي الرواياات ولذلك نرى بأنّ هناك تداخل بين ملامح الاغتراب حيث يقترن الاغتراب الزمني بالاغتراب المكاني فـ «إذا كان الزّمن يمثّل الخطّ الذي تسير عليه الأحداث فإن المكان يظهر على هذا الخيط و يصاحبه و يحتويه فالمكان هو الإطار الذي تقع فيه الأحداث.» (قاسم، ٢٠٠٤، ١٠٦) وأرادت الشخصيّة بوصفها للزّمن أن تصوّر للقارئ مدى اغترابها الواسع ولذلك تقول بأنّ جسمها يستطيع أن يرحل عبر المسافات والأمكنة وكذلك قلبها

أكثر دفئاً من نار مدفئة خشبيّة في سراي التّاريخ أي أنّه يحمل تشوّقاً وتلهّفاً يفوق على ما شاهده التّاريخ بعينه. من الشّواهد الأخرى التي تحكي عن الاغتراب الزّمني في الرواية؛

«هاهو لايريد أن يختزل الزّمن، بل يمدّده عبر الستّين عاماً الضّائعة، ويحاول أن يمدّه بالقوّة والاستمرار والتمدّد، رغم أنّه ما ينوي القيام به هو زيارة مقبرة للمسلمين وليس اليهود، وكلّ ترابها يستدعي خفّة الوطء. كان يمشي وهو محتار: هل هي فعلاً سنوات ضائعة؟ ولماذا يستعمل هذه الكلمات الكبيرة؟..» (ونيسي، ٢٠٠٦، ١٥٦)

يحاول الرّاوي أن يقوم بنقل فكرة الشخصيّة الرّوائيّة حول الزّمن ولذلك يسعى لتصوير المشهد الذي يدور في خُلد الشخصيّة حول الزّمن الروائي. التعجّب من سيرورة الزّمن وكذلك الشّعور بالألم من هذا الحدث والشّعور بالتعجّب والتوجّع والتحسّر على سيرورة الزّمن من أهم الملاحظات التي يمكن أن تُشاهد في الشاهد السابق. فالزّمن الذي هو يشكل عمر الشخصيّة ضاع من دون أن يشعر بملذّات فيه فهوى يرى بأنّه لا زمن أمامه وهو تارة أخرى يستعيد الفكرة وكأنّه يتردّد بالنسبة إلى ضياع عمره وقد يكون تصوير الاغتراب الزمني أكثر صعوبة من الاغتراب المكاني حيث «المكان ثابتٌ نسبيّاً أمّا الزّمان فمتغيّرٌ وبالتالي تأثيره على الإنسان أكثر غموضاً أيضاً» (العبد الله، ٢٠٠٥، ٢٨) الحديث عن المقبرة يصور لمحة أخرى عن الاغتراب الزمني حيث يذكر الشخصيّة الروائيّة بالأيام التي مضت في عشق الفتاة اليهوديّة ونظرته بالنسبة إلى اليهود أمّا المشي بخفّة الوطء كأنّه إشارة إلى الفرق بين مقابر المسلمين والآخر اليهودي حيث تكون قبور المسلمين غير بارزة

الوضوح لكن قبور الآخر فهي مزينّة وجميلة وهذا ما تحدّثت عنه الشخصيّة في الروايّة.

الإغتراب الذّاتي

يعدّ الاغتراب الذّاتي من أهمّ أقسام الاغتراب في رواية جسر للبوح وآخر للحنين و«الاغتراب عن الذّات هو الحالة التي يصبح فيها الشّخص ببساطة غير مدرك لما يشعر به حقيقة، ويحبّه ويرفضه، ويعتقده، ولما يكونه في الواقع.» (الشتا، ١٩٨٤، ١٦٧). كما أشير في موضوع الاغتراب المكاني، يحمل العنوان دلالة على المكان الرّوائي لكنه في الحقيقة لم يتحدّد عنوان الرّواية بهذه الصّفة بل يتعدّاها كي يدلّ على أشياء أخرى كثيرة تشحن ذاكرة القارئ بمعلومات أخرى منها أنّ العنوان بإمكانه أن يدلّ على شيئ من الإبهام والغموض؛ أي جسر للبوح وآخر للحنين، كأنّ الجسور حتّى وإن يجهلها القارئ، كانت في الماضي موضعاً للبوح بالأسرار لكنّها أصبحت فيما بعد موضعاَ للحنين وهذه الملاحظة بإمكانها أن تُشير إلى صفة نفسيّة لو لم نقل تشير بشكل مباشر إلى الاغتراب الذّاتي، لأنّها تدلّ على التغيير والتحوّل بين أمرين أصبحت الشخصيّة الروائيّة بين الأمرين.

من الشّواهد التي بإمكانها أن توضّح فكرة الاغتراب الذّاتي للشخصيّة الرّوائية؛ «ها أنا أعود لأبحث في عيون النّاس، ووراء الأبواب المغلقة والمشرعة، أبواب تذهب من الصّدئ ليصدأ فيها الحلم الصّغير، بدل أن يتورّد، وينشر مواسم عطره على بقايا الرّسوم والأطلال، ليبدو قلبي وقد فاض بما ألقي فيه وأنا بعيدٌ عنك.» (ونيسي، ٢٠٠٦، ١٨).

لم تكن الشخصيّة الروائيّة في صدد تصوير الحزن والهمّ والألم من دون إمزاجه ببعض الصّفات التزئينيّة التي تساعد القارئ على تكملة القراءة، ففي الشّاهد السّابق على الرّغم من أن الشخصيّة تصوّر مدى اغترابها النّفسي لكنّها كذلك تُشير إلى جماليّات الموقف والمشهد. فهي تحكي عن الحلم الصّغير وكذلك نشر مواسم العطر و فيضان القلب بالتلهّف والتشوّق ممّا يزيد ويقوّي وقع هذا الحديث على الأسماع أي كأنّ كلّ شيء تغيّر مفهومه عند الشخصيّة الروائيّة، كأنّها لم تشعر بالعواطف والأحاسيس والذاتية التي كانت عليها سابقاً في أيام الثورة والتحرير.

فكرة الحديث مع المدينة والبوح بالهواجس والعواطف والأحاسيس من التقنيات التي استعملتها زهور ونيسي في رواية جسر للبوح وآخر للحنين وهذا الأمر من الميزات المهمة للروائيّة في تطرّقها إلى موضوع الاغتراب،وهذا يعني أنّ الشخصيّة الرّوائية حاولت أن تسلك مسلك المجاراة أي «المجاراة لكلّ من الأهداف الثقافيّة والوسائل المنتظمة، فالمسايرة الأتوماتيّة باعتبارها مظهراً من مظاهر الاغتراب، والتي اعتبرها فروم إحدى مكانيزمات عمليّة الهروب من الحريّة.» (الشتا، ١٩٨٤، ١٥٢) والمجاراة ظهرت في رصد الشخصيّة المغتربة للأخبار والأحداث التي المتعلّقة بالوطن، فالشخصيّة لم تختر التمرّد والثّورة أو الانسحاب أو الإبتكار والتجديد، بل حاولت أن تُحافظ على كلّ الأشياء التي تربطها بموطنها الرّئيس فكأنّ الشخصيّة الرّوائيّة لاتجد أحداً تحكي له هواجسها وألمها الدّاخلي، أي لا ترى أحداً يفهمها و يدركها ومن الأسباب الأخرى لمخاطبة المدينة هي أنّ «الأرض» والحديث عنها أصبح من الموضوعات

المهمة في هذه الرّواية حيث ساعدت على تصوير الاغتراب الذاتي للشخصيّة الروائيّة:

«بعد هذا البوح، نظراتك يا حبيبتي أراها ساهمة، لكنّها كافية لبعث الحنين، وأنا أعود إليك طاهراً بلا ذنوب وبلا آثام، سوى إثم واحد، أنّني رجعت إليك روحاً نقيّة طاهرة، بعد أن كانت روحاً ملآى بالذّنوب، وأنت سبب كلّ الذّنوب، لأنّك تركتني أفارقك كلّ هذا الزّمن.» (ونيسي، ٢٠٠٦، ٢٦).

من المنعطفات المهمة والتي زادت الاغتراب الذّاتي للشخصيّة الرّوائيّة جدلاً هي أنّ كمال عطّار يُخيّر بين أمرين؛ إمّا أن يخضع لعشق الفتاة اليهوديّة إمّا أن يجتنب هذا الفعل الذي لايجلب إلّا العار للعائلة ولذلك يضع في مفترق طريقين يكاد يودي به إلى الجنون، أمّا بعد أن بلغ كمال عطّار مرحلة وعي الذّات، انقلبت المسألة رأساً على عقب و«يكشف تيّار الوعي عن الوعي الباطني من خلال الحديث النفسي للشخصيّات التي يتجاوز كثيراً من الأحداث المهمّة، تاركاً للقارئ استنتاجه، ويعتمد الرّوائي في إضماره على الرّجوع الزّمني أو تقدّمه من خلال تداعي المعاني في ذاكرة الشخصيّات وعقلها الباطني.» (هلال، ١٩٧٣، ٥٢٠) فأصبحت المدينة حبيبته وعشيقته ولذلك يخاطبها في الشّاهد الماضي بالحبيبة. فالأرض أو المدينة هي التي أدّت إلى تلهّف الشخصيّة الرّوائيّة ولذلك ربّما يظنّ القارئ بأنّ هذا الحديث مع المدينة إلى درجة ما يكون خارجاً من العادة وهذا الأمر يدعم فكرة الاغتراب الذّاتي للشخصيّة تماماً فالشخصيّة الرّوائيّة كما ذُكر في الشّاهد تستعيد الماضي وتبحث عن الأسباب التي أدّت إلى اغترابها الذّاتي وأزمتها النفسيّة.

لم یکن حدیث النّفس الطّریقة الوحیدة التي حاولت الشخصیّة الرّوائیّة أن تبثّ شکواها واغترابها بواسطته بل کذلك أضفت الروائیّة قارئها في الکثیر من الأحیان بملامح الاغتراب من نوع آخر أدّت إلی أزمة في ذات الشخصیّة الرّوائیّة؛

«في الماضي کان کمال عطّار یتصوّر بیته هذا أجمل البیوت، وأنظفها، والیوم لا یدري لماذا یجده أشبه بوکر لا یلیق برجل محترم مثله، رجل زادت شعیراته الفضیّة، التي تلوّن شعره وقاراً وهیبة، وأضفی علیه دوره في الحیاة کإطار سام في دوالیب الدّولة غموضاً لا هو بمشاعر الفخر ولاهو بمشاعر الخوف، کم سمع وردّد واقتنع المسؤولیّة تکلیف ولیست تشریفاً، إنّه یراها الیوم خوافاً ورهبة، لیس بسبب عدم قیامه، ولکن بسبب تجاوزات غیره.» (ونیسي، ۲۰۰۶، ۲۷).

الماضي هو الحجر الأساس الذي تجلّت فیه ملامح الاغتراب، بما أنّ کمال عطّار قضی أعواماً کثیراً من عمره خارج البلاد، فحینما لا یری حین رجعته معالماً بارزة من ماضي المدینة تساعد علی سدّ فراغ نفسیّاته ولذلك کأنّه یسلّط الضّوء علی نفسه و ما اعتراها من تغیّر فبیت کمال عطّار کان أجمل البیوت أمّا الآن وهو رجع بعد سنین عدة یری أنّه لا تکون هناك ملائمة بین السّکن وبینه حیث «بیت الإنسان امتداداً لنفسه، إذا وصفت البیت وصفت الإنسان.» (بوتور، ۱۹۸۲، ۵۳) الملاحظة في الشّاهد السّابق هي أنّ الرّوائي بشکل غیر مباشر یصوّر الذّات واغترابها وهاجسها بواسطة نظرتها إلی المکان.

الآخر الیهودي والمستعمر

دراسة صورة الآخر اليهودي وموقف الأنا من الآخر من أهمّ الموضوعات التي نراها في الدراسات ما بعد الاستعماريّة «فحرص الغرب على تعميم تجربته الثقافية والروحيّة والماديّة، إنّما يقوم على إفراد ملامح الأوج والقدرة على الشّمول ليكون المسعى نحو فرض النموذج الواحد، التعالي على المجمل من المكوّنات الأصليّة التي تقوم عليها ثقافة الآخر.» (كارتر، ٢٠١٠، ١٢٨) تساعد دراسة صورة الآخر في أغلب الأحيان على تبيين الفكرة العامة لكلّ شعب عن الشعب الآخر. كما لمّحنا سابقاً، يقع كمال عطّار في حُبّ فتاة يهوديّة لكنّه يكتم هذا الحُبّ في البداية كي يجد الحلّ الأمثل للبوح بهذا السّر والوصول إلى هذا العشق ولذلك يحاول أن يحلّ القضيّة مع نفسه أوّلاً ومن ثمّ يشاركها أمّه، لكن موقف الأم هو الذّي وضّح لكمال مدى خطورة القيام بهذا الأمر؛

«يهوديّة..، هكذا مرّة واحدة، إنّك تقضي علي يا بني، قبل الأجل..تصوّر والده يقول ذلك، وهو الرّجل التقي الحافظ للقرآن، المقيم لشعائر الدّين، والمحافظ على التقاليد، والوطني المدافع عن الدّين والعروبة، بل إنّه تصوّره لا ينطق وإلى الأبد، عندما يعلم أن ابنه الوحيد يحب يهوديّة، تصوّر نفسه لحظة أنه اعترف بسره هذا، وأنّ والده لفظ أنفاسه الأخيرة عندما سمع ذلك.» (ونيسي، ٢٠٠٦، ٣٢).

لم يكن يتوقّع كمال عطّار مثل هذه الرّدود من قبل العائلة، لكنّ أمّه نبّهته بالنّسبة إلى موقف أبيه من هذه القضيّة. فكرة موت الأب بعد استماع خبر حبّ الإبن لفتاة يهوديّة يكفي لمفارقة الحياة، فالأب من مدافعي الدّين والعروبة. هذا المشهد يصوّر للقارئ الأزمة التي وقع فيها كمال العطّار. فهو الإبن الوحيد لهذه العائلة وعليه أن يتردّى ثوب الدّفاع عن الدّين والعروبة شأن أبيه وعليه

أن یکون قدوة للآخرین ومن الملاحظات الأکثر أهمیّة لهذا الشّاهد هي أنّ الرّوائي أراد أن یصوّر نظرة العربي الجزائري إلى الآخر الیهودي فیحکي الشّاهد عن ابتعاد المواطنین أشدّ الابتعاد عن الامتزاج بالیهود و«أهمیّة صورة الآخر في أدب أي أمّة أنّه یکشف الحقائق العمیقة لهذه الأمّة في أعین أبنائها، والمکوّنات الأهم لهویّتها، لأنّهم یتناولون الآخر ویتحدّثون عنه بإبراز الجوانب التي یرون أنه یخالفهم فیها.» (الحربي، ۱۴۴۱، ۱۶۴) وکافّة الشواهد المذکورة بتفاصیلها تحکي عن موقف الشّعب الجزائري ورؤیته للآخر الیهودي حیث هذا الأسلوب في الکتابة ما بعد الاستعماریّة یکون ردّاً على الآخر الذي وضع الذات والشخصیّة الجزائریّة في الهامش.

من الصّور الأخرى التي لمّحت إلیها الرّوایة فیما یتعلّق بالآخر الیهودي هي صفة الوحدة بین الیهود فهم ید واحدة، یدعم بعضهم البعض یعني أنّ الرّوائیةلم تکن تتجاهل بالنّسبة إلى خصوصیّات ومیزات الآخر الیهودي بل حاولت حتّى الإمکان ترسم هذه المیزات للقارئ وتنبّه الأنا بأنّ الآخر قد یمتلك صفات لم تکن تمتلکها الأنا وهذا الأمر یحکي عن انتباه الأنا إلى الآخر، إلى تصرّفاته، میزاته وأخلاقیّاته؛

«یجب أن نفعل مع إخواننا العرب ما یفعله الیهود في الخارج مع إخوانهم، ألا تراهم یفعلون ذلك بمختلف مستویاتهم، الفقیر منهم والغني، تجّار الذّهب وتجّار الخشب، کلّهم یفعلون ذلك بتضامن أکبر» (ونیسي، ۲۰۰۶، ۳۳).

کما ذکر في الشّاهد تحاول الشخصیّة الرّوائیّة أن تقوم بأخذ الدّرس من الیهود فهي تذکر بمدى اتّحاد الیهود ومدى استیعابهم لمثل الید الواحدة لاتصفّق فحاولوا أن یساعدوا بعضهم البعض للوصول إلى نوایاهم غیر شرعیّة في

احتلال أرض العرب أمّا العرب فهم أين يقفون من هذا الموقف الذي كان من الضروري أن يعملوا به. الشّاهد التّالي من الملامح الأخرى التي تقوم برسم صورة الآخر اليهودي في الرّواية؛

«نصرانيّة ولا يهوديّة، إنّ اليهود لعنهم الله في كتابه العزيز، أعداؤنا وأعداء نبيّنا ودينا منذ الأزل، وإلى أبد الآبدين، ما الذي تريد أن تفعله بوالدك يا كمال، أبوك وطني مكافح من أجل حريّة الجزائر وفلسطين، ويحز في نفسه اليوم أن تنسى ذلك، حتما تريد أن تقضي عليه قبل الأوان، يهودية هكذا مرّة واحدة..» (المصدر نفسه، ٣٥).

يحكي الشّاهد عن عظمة القضيّة الفلسطينيّة ومدى أهميّتها، حينما يواجه القارئ هذه الشّواهد وهذه الصّور التي رسمتها الشخصيّات الرّوائيّة ربّما يظنّ بأنّه أمام رواية فلسطينيّة لا جزائريّة هذا يعني أنّ زهور ونيسي أرادت أن ترسم مدى أهميّة القضيّة الفلسطينيّة في العالم العربي حيث كانت ومازالت أهميّة هذه القضيّة تضاهي القضيّة الجزائريّة. وهذه الأحاديث ليست إلّا حديث معاناة شعب لايستطيع أن يوصل صوته إلى العالم وهذه الأصوات «تحاول لفت أنظارنا إلى الأكثريّة الكبيرة المستعمرة التي لم تترك لها أثراً في التاريخ، لأنّها لم تستطع إيصال صوتها إلى الآخرين، أو لم يُسمح لها بذلك» (برتنز، ١٣٨٢، ٢٦٩) ترى الشخصيّة الرّوائية بأنّ الاختلاف والعداء مع اليهود أمر جذري فهذا العداء كان منذ زمن النّبي وسيبقى إلى أبد الآبدين.

من الشّواهد الأخرى التي تحكي عن الآخر المستعمر؛

«إنّ الاستعمار يحاول أن يحافظ علينا أصحاء لخدمته، وخدمة مستعمراته، سواعدنا وعقولنا، إنّنا بالنسبة إليه الجنود عند إعلانه لحروبه، والبناة في عملية

التعمیر والبناء، عکس ما یفعله مع جیراننا، إنّه یراهن علی بلادنا وشعبنا أکثر، إنّنا بالنسبة إلیه جزء من الوطن الأم، لذلك طال استعمار الاستیطاني لبلادنا.» (المصدر السّابق، ۱۱۱).

یحکي الشّاهد السّابق عن مدی تأثیر الآخر المستعمر علی الشّعب العربي الجزائري، فکما تُشیر الشخصیّة الرّوائیّة في السّنوات التي کانت الجزائر مستعمرة للبلدان الغربیّة، استطاع الآخر المستعمر أن یحتلّ مساحة واسعة من حیاة العربي الجزائري حیث وصل هذا الأمر إلی درجة کان الاستعمار یراهن علی هذا الشّعب من دون کافّة مستعمراته و«شکلت الثّورة نقطة تحوّل أساسیّة في مسیر التجربة الروائیّة الجزائریّة، حیث أصبح الحدیث عن الثّورة والنّهل منها اعتباراً ضروریّاً في الکتابة الرّوائیّة، سواء بسرد بطولاتها أم بتشکیلها، وحتّی وإن شکلت توجّهات تنتقد منطقها ونتائجها وتطعن في إنجازات بعض القائمین بها، فإنّها تُجسّد تصوّر البطل النموذجي وصناعة الوعي علی الرّغم من أنّ التعامل مع الثّورة وصف بالسطحیّة أحیاناً والمثالیّة والاحتفالیّة التي لم تتجاوز حدود الانعکاس.» (بلعلي، ۲۰۱۱، ۵۲) وأرادت الرّوائیّة من خلال هذا الشّاهد أن تقوم برسم فضاعة الاستعمار الغربي وکذلك صعوبة تحرر الجزائریّین من هذا الاستعمار، الاستعمار الذي استطاع أن یخیّم علی کافّة جوانب حیاة العربي الجزائري.

التحریر وذکری الوطن

بعد أن کثرت الروایة الجزائریة التي حاولت أن تقدس مبادئ الثورة والدفاع عن الوطن وتوعي الشعب بالنسبة إلی مکانة القضیّة الجزائریة وضرورة تحریرها

من الآخر المحتل سلطت الرواية الجزائرية الضوء على المشاكل الكامنة ومظاهر الإستعمار والإحتلال البارد والحديث الذي بدأ يؤثّر على ثقافة الشعب الجزائري ومساراته السياسية.فلمت رواية جسر للبوح وآخر للحنين بين دفّتيها أحاديث كثيرة حول تحرير الشعب الجزائري ممّا يعزز دور الروائية وأهميّتها بالنسبة إلى هذا الأمر و«تعتقد ونيسي أن للكتابة مهمّة نبيلة لها مبادئها القوية، أهمّها الإلتزام نحو قضايا الشعب، ومبادئ القلم كمبادئ صاحبة، إمّا قويّة عنيفة أو تافهة مهزوزة، والمحافظة على مبادئ وأخلاقيّات هذا القلم هي أفضل وأصلح الوسائل للوصول بهذا القلم إلى أهدافه مهما كانت قويّة وعنيفة.» (أرزقي، ٢٠٠٦، ٧٩) فأتت فكرة التحرير وذكرى الوطن عند زهور ونيسي تختلف عن الأفكار والأساليب التي سلكتها الروائيات الجزائريّات الأخر حيث حاولت زهور ونيسي أن تمعن النظّر في قضايا أكثر خطراً وأعظم شأناً، من الشواهد التي تحكي عن قضيّة تحرير الجزائر؛

«الديموقراطيّة قيمة نظريّة رائعة، لكنّها لاتستورد هكذا، بين يوم وليلة، أو محمولة على دبّابات الاحتلال والتبعيّة، ولكنّها تؤسّس وتنمو مع الانسان عبر التربيّة والتعليم، والحوار والاحترام المتبادل والحسّ الحضاري بين الأفراد والجماعات.» (ونيسي، ٢٠٠٦، ٢٤٨).

عبّرت الروائية من خلال الحوار الذي يدور بين السيد أحمد وكمال عطّار عن ضرورة التعرف على الديموقراطية والفرق بين الديموقراطية التي ينادي بها الإحتلال والديموقراطية حسب مفهومها الصحيح وهذا الأمر يحكي عن عدم وعي الكثير من الشّعب الجزائري بخطط الآخر الباردة والتي قد خدعت الكثير من النّاس حيث كانوا ينظرون إلى الآخر نظرة إنبهار وتعالٍ. ومن ملامح انتباه الشخصيّة الروائية إلى مظاهر الإحتلال الحديث والتي يعدّ أمراً مهمّاً في تحرير الوطن؛

«إنّهم یریدون أن یصدروا لنا قیمهم عبر منظور احتلال جدید، أو عن طریق تقزیمنا والتشکیك في قوّتنا الذّاتیة، أیة دیمقراطیّة هاته التي تفرض على شعب رغماً عنه، على أنّها الاختیار الأفضل من کلّ الاختیارات السّابقة واللاحقة؟ إنّ ذلك ینافي المفهوم الحقیقي للدیمقراطیّة، في بُعدها الأساسي التحرّري، وبعدها في الاختلاف الفکري بین البشر.» (المصدر نفسه، ۲۴۸).

أرادت الروائیة أن تزید توعیة الشعب بتصویر الخطط التي بدأ بتنفیذها في الجزائر. کانت تعتقد زهور ونیسي بأن المرأة وخاصّة صاحبة الفکرة یجب أن تخوض معارك جدیدة ومن نوع آخر ولذلك تکون الموضوعات التي تطرحها زهور ونیسي في خدمة کیان الوطن وکذلك الأزمات والتحدیات التي تواجه هذه المرأة في وطنها الجدید الذي راح یؤثّر علیه الآخر و«قد کان أهم میدان لهذه المعارك الجدیدة هو؛ أن تتجاوز أبجدیات الکتابة والإبداع عند المرأة مرحلة التردد والهوایة، إلى مرحلة النضج والجدیّة والغزارة، والإبداع الفني، واکتساب الخبرات في الأسلوب والتعبیر، والجرأة في الطرح.» (یمینة، ۲۰۱۵، ۲۵۱) ولذلك نرى بأن تجربة زهور ونیسي في تناولها الکثیر من الموضوعات حول الوطن وانتباهها بالنسبة إلى الإحتلال الثقافي واستیلاب هویة الشعب الجزائري جاء قویّاً ومتمیّزاً عن باقي الروائیّات الجزائریّات حیث طرحت زهور ونیسي قضایا سیاسیة واجتماعیّة جدّیة بالنسبة إلى الدیموقراطیّة واستلاب هویّة الشّعب الجزائري.

ذکرى الوطن من الموضوعات التي تدخل حقل الکتابة الرّوائیة ما بعد الکولونیالیّة. یشکّل الوطن الوتیرة الهامّة للروایة الجزائریّة. فالرّوایة الجزائریّة في السبیعینیّات من القرن الماضي وحتّى الآن لم تکن بمعزل عن الحدیث عن الوطن «والروایة النسویة الجزائریّة لم تعد تقتصر على معالجة

هموم المرأة ومعاناتها، ولم ترتكز على تيمّة المشاعر والمراوحة في فك المطالبة بالحقوق في عراك ضدّ القمع والتميز، وإنّما أخذت تستغل الآليّات الفنيّة المتاحة وتشتغل على تجريب أساليب إبداعيّة جديدة لمواكبة القضايا السياسيّة المصيريّة وطنيّاً وعربيّاً، كما ألحّت على أن تُشارك بآرائها في طرح مشكلات الفرد وهمومه، مستندة على ماتحفظه الذاكرة التاريخيّة الوطنيّة وما يقدّمه التراث الشّعبي من طقوس وعادات وأساطير.» (عمّاري، ٢٠١٧، ٣٨٨) لكنه يجب أن نذكر بأنّ هذا الموضوع نفسه جاء على أشكال تختلف عن الأشكال والملامح التي ظهر فيها منذ بداية الرواية الجزائريّة، فنرى بأنّ الوطن ظهر في رواية جسر للبوح وآخر للحنين بثوب جديد؛

«ما الخلل الذي أصاب آلة الحياة في المدينة؟ وما الغبار الذي علق في دواليبها؟ وما هذه الحشرات السّامة التي ما فتئت تبيض وتفرخ في أركانها وزواياها؟ وهذه الطّحالب والأشواك والصبّار والعلق، الذي ارتوى بماء كان يجدر أن ترتوي به الورود والزّهور والرّياحين؟ أين الذي يقدر اليوم على إزالة هذه السّموم والأوحال والنّفايات من آلة الحياة ودواليبها؟» (ونيسي، ٢٠٠٦، ٢٢٥) ربّما لم تكن هناك روائيّة جزائريّة تناولت المدينة أو مسقط رأسها على هذا الشكل. بما أن رواية جسر للبوح وآخر للحنين تُعدّ من روايات السيرة الذاتيّة لكن الروائيّة أجادت في وصف شعورها وعواطفها أمام الوطن فمثّلت مدينة قسنطينة هيام الروائيّة بالوطن فرواية جسر للبوح وآخر للحنين هي تعبير عن ذلك الشّعور الاغترابي والتوجّع لبلاد تعرّضت لشتّى الحملات والغارات من قبل الآخر لكنها بقية صمودة أمام تلك المؤامرات.

الخاتمة

تطرّقت الرّوائيّة برؤية ما بعد استعماريّة للقضيّة الجزائريّة حيث لم تكثر الرّوائيّة عن الموضوعات المكرّرة عن الوطن وسنوات التعذيب والضياع والاستعمار بل حاولت أن تطرح قضايا جديدة منها التنبيه إلى قيمة الثّورة التي نالتها الجزائر وكذلك ضرورة الاحتفاظ بهذه الثورة وعدم السّماح للآخر المترقّب والذي أخذ ينفّذ خطّاته بشكل جديد بين الشّعب الجزائري وروّاد الثورة لتدمير هذا البناء.

من الأساليب أو الموضوعات التي تحكي عن رؤية الكاتبة ما بعد الاستعمارية هي قضيّة الاغتراب على أشكاله المتنوّعة والذي اختصرنا بذكر الاغتراب المكاني والذاتي والزّمني. ومن الموضوعات الأخرى التي ساعدت الروائيّة على التعبير عمّا يدور في خلدها هي قضيّة الآخر وتناوله من جانب الشخصيّات الجزائريّة وتحليل خطّاته وأفكاره التي راحت الرّاوئيّة توعّي الشّعب بالنّسبة إليها وخاصّة ذلك الاستعمار الذي يبدأ من بين الشّعب الجزائري. فكرة التحرير وذكرى الوطن من الموضوعات الفرعيّة الأخرى التي عبّرت عن فكرة الروائيّة ورؤيتها الما بعد استعماريّة.

ظاهرة الاغتراب على أشكالها الثلاثة أي الاغتراب المكاني والزّماني والذّاتي من الموضوعات والأساليب الأكثر أهميّة والتي أجادت الرّوائيّة في أخذها أساليب للكتابة ما بعد الاستعماريّة بالنسبة إلى الموضوعات الأخرى فاستطاعت الرّوائيّة أن تعبّر عن استغرابها بالنّسبة إلى المظاهر الحديثة من أمكنة وأزمنة وقضايا

داخليّة وحنينها إلى الماضي الجميل. ظاهرة الاغتراب ساعدت الرّوائيّة على التطرق إلى القضيّة الجزائريّة وبعض الأحداث التي شهدها الشّعب الجزائري في محاولات الأخر الغربي التي بدأها ينفّذها بعد الاستعمار المباشر ومن جهة أخرى هذا الاستغراب ساعد الشخصيّة على وضع الآخر في الهامش وحلولها هي الوتيرة المركزيّة من القضايا التي شغلت بالها واستدعت التأنّي والتفكير.

استطاعت الروائيّة أن تطرح رؤيتها في الموقف التي تتطلّبها القضيّة الجزائريّة في السنوات الأخيرة وهذا الأمر نفسه يحكي عن وعيّة الروائيّة بالنّسبة إلى عدم انتهاء النشاطات الاستعماريّة فظهرت هذه النشاطات على شكل جديد تتطلّب الرّد على أشكال جديدة أيضاً وهذا الأمر ما شاهدناه في محاولات الروائيّة في الرّد عن الكثير من أفكار الآخر الخطرة والتي ساندها فكرة الاهتمام بذكرى الوطن والدّفاع عن قيمة الحريّة

المصادر

١. عمّاري، هدى (٢٠١٧)، التمثّلات الثقافية في الخطاب ما بعد الكولونيالي، الرواية النسائية الجزائريّة أنموذجاً، مجلة دراسات أدبيّة، العلامة، العدد٤،

٢. سعيد، إدوارد (٢٠٠٠)، العالم والنصّ والثقافة، ترجمة عبد الكريم محفوظ، دمشق: منشورات اتحاد الكتّاب العربي.

٣. لومبا، إينا (٢٠١٣)، الكولونيالية وما بعدها، ترجمة باسل المسالة، دمشق: دار التكوين، ط١.

٤. جديلي، بسمة (٢٠١٦)، دراسات ما بعد الكولونيالية من أبرز أقطابها، مجلّة إشكالات، دوريّة نصف سنويّة محكمة، العدد التاسع،

٥. حمداوي، جميل (٢٠١٨)، نظريّة ما بعد الاستعمار، أطروحة في خدمة علم الاستغراب، السنة الرابعة، العدد ١٢،

٦. بوختاش، سناء (٢٠١٧)، استراتيجيّة التقويض بين إشكاليّة المفهوم ومأزق التطبيق في الرواية النسائيّة الجزائريّة المعاصرة (سأقذف نفسي أمامك لنديهيّة لويز أنموذجاً)، مجلّة جيل للدراسات الأدبيّة والفكريّة، العالم الرّابع، العدد ٣٠،

٧. لحمداني، حميد (١٩٩١)، بنية النّص السّردي من منضور النّقد الأدبي،د. المركز الثقافي العربي للطّباعة والنّشر والتوزيع. بيروت؛

٨. ديفيز، ب.س (١٩٩٦)، المفهوم الحديث للزّمان و المكان، ترجمة عطا السيّد، مصر، الهيئة المصريّة العامّة للكتب.

٩. الشّتا، السيد علي (١٩٨٤)، نظريّة الاغتراب الاجتماعي من منظور علم الاجتماع، نشر عالم الكتب.

١٠.بوتور، ميشيل (١٩٨٢)، بحوثٌ في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، بيروت؛ دار عويدات للنشر.
١١.غنيمي هلال، محمد (١٩٧٣)، النقد الأدبي الحديث،د. نهضة مصر للنّشر و الطباعة و التوزيع.
١٢.ونيسي، زهور (٢٠٠٦)، جسر للبوح وآخر للحنين، نشر عاصمة الثقافة العربيّة.
١٣.قاسم، سيزا (١٩٨٥)، بناء الرواية «دراسة مقارنة في ثلاثيّة نجيب محفوظ»، دار التنوير للطباعة و النشر، بيروت.
١٤.الحربي، صالح بن عويّد (١٤٤١)، «دراسات صورة الآخر في الأدب العربي وأثر إدوارد سعيد دراسة مقارنة»، مجلّة جامعة طيبة، للآداب والعلوم الانسانيّة، السّنة السّابعة، العدد ٢٠،
١٥.برتنز، يوهانس ويلم (١٣٨٢)، *نظريه ادبي*، مترجم: فرزان سجودى، تهران: نشر دار آهنگ ديگر، الطّبعة الأولى.
١٦.بلعلي، آمنة (٢٠١١)، المتخيل في الرواية الجزائريّة (من المتماثل إلى المختلف)، الجزائر؛ دار الأمل للطباعة والنّشر.
١٧.أرزقي، فراد محمّد (٢٠٠٦)، جزائريات صنعن التاريخ، د. الأمل للطباعة والنّشر، الطبعة الثانية.
١٨.يمينة، بشي (٢٠١٥)، التجربة الإبداعية النسائية في الجزائر «إشكالات وقضايا في تجربة زهور ونيسي الإبداعية»، مجلّة إشكالات، دورية نصف سنوية محكمة تصدر عن معهد الآداب بالمركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، صص ٢٤٧-٢٦٤.
١٩.حياة، حصباية (٢٠١٥)، اتجاهات الرواية في الأدب النسوي الجزائري، مذكرة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي القديم والحديث، جامعة زيّان عاشور بالجلفة.
٢٠.سعيد، إدوارد (٢٠٠١)، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، د.مؤسسة الأبحاث العربيّة للنّشر. بيروت

٢١.فراحتیه، نبیلة وبوزیدي، نعیمة (٢٠٢١)، تشظي الهویّة وانتشار الذّات في الخطاب الرّوائي الجزائري ما بعد الكولونیالي، قراءة في روایتي الانطباع الأخیر وماتذروه الرّیاح، مجلة علوم اللغة العربیّة وآدابها، المجلّد ١٣، العدد ١، ص ٧٧٠_٧٤٩.

٢٢.فانون، فرانز (٢٠١٥)، معذبو الأرض، ترجمة الدكتور سامي الدروبي وجمال الأتاسي، مركز مدارات للأبحاث والنّشر، الطبعة الثالثة.

٢٣.بركات، عبد الرّزاق (٢٠٠٧)، الاغتراب في الشعر التركي والعربي المعاصر، الكویت: دار القلم، ط١.

٢٤.العبد الله، یحیى (٢٠٠٥)، الاغتراب، دراسة تحلیلیّة في شخصیّات الطّاهر بن جلّون، بیروت: المؤسّسة العربیّة للدراسات والنّشر، ط١.

٢٥.نصیر، یاسین (١٤٣٠)، الرّوایة والمكان، بغداد؛ د. الشؤون الثقافیّة العامّة.

٢٦.كارتر، دیفید (٢٠١٠)، النظریّة الأدبیّة، ترجمة باسل المسالمة، دمشق: دار التكوین، ط١.

٢٧. [3] – Ashcroft, Bill, Gareth Griffiths, and Helen Tiffin: The Empire Writes Back: Theory and Practice in Post-Colonial Literatures, Routledge, London and New York, 1989, p: 2